درس العربيّة

خطبة الناها الاب لويس شيخو اليسوعي في حفلة توزيع الجوائز في كليّة القديس يوسف

هي اللغاتُ ترى في سيرها غيرًا تبدو فتذكو لحين ثمَّ تنكسفُ
كالنبت يبدو ضئيلًا ثمَّ يعقبهُ زهرٌ وطيبُ ثمارٍ ثمَّ ينتصفُ

ايها السادة الكرام

هذا ما نعت به بعض شعراء العصر لفيف اللُّغات التي شاعت بين الملأ في ممرّ الاجيال. وايمُ الحقّ انَّ من اعتبر تاريخ ألسنة البشر واستقصى ما طرأ عليها من التقلّبات يراها في اطوارها اشبهُ باطوار حياة كل حيّ على الارض اعني انها تولد كالطفل الرضيع ثمَّ تتحرَّر من قُمُطها فتنشأ وتترعرع كالحدث اليافع ثمَّ تزدهر فتبلغ عزّ قوَّتها كالكهل التامّ الشباب الى ان يتقلّص ظلُّها وتتضعضع قواها كالشيخ الهَرِم فتموت وتضحي نسيًا منسيًّا في بطن المكاتب او زوايا المدارس كالميت المحنَّط المدرَج في ضريح قبره.

بيد انَّ الله عزَّ وجلَّ قد استثنى من حكمه هذا بعض اللغات فخصَّها بحياة اطول ممَّا سواها فتخالها كالنَّسر لا تزال تجدّد شبابها وتعمّر العمر الطويل الذي هو أحرى بان يدعى صَنَفًا من الخلود

ولغتنا العربيّة ايها السادة الاجلاَّء قد اصابت من هذا القبيل بالسَّهم الفائز والقِدح المعلّى فانَّ من يتتبَّع آثارها ويتحفى في درس تاريخها مدى القرون الغابرة يراها في كلّ آنٍ مزدانةً بخواصّ اللغات الكاملة من حيثُ مفرداتها وتراكيبها وعباراتها واساليبها كأنَّها ظهرت بادئ بدء تامَّة العدَّة كاملة الأهبة. واذا قابلنا بين اللغة الشائعة في يومنا مع لُغة اقدم الشعراء كامرئ القيس والنابغة لا نكاد نرى بين اللغتين اختلافًا يُذكر اللهمَّ الّا في استعمال بعض الفاظ لغويَّة شعريَّة كما يرى ذلك في نثر ونظم كلّ اللغات القديمة او في اتخاذ بعض التعابير الجديدة دلالةً على المعاني المستحدثة كما هو دأب اللغات الحيّة.

فكاني اذن بالعربية عذراء فاذنة الجمال تامّة الشباب لم تأنس بضعف الطفولية ولم تعرف غضون الهرم

ومن عجيب امر لغتنا العزيزة انّهُ مرّت عليها صروف الدهر وكوارثهُ دون ان تمسّها الايام باذًى فترى الشعوب تتوالى بضبط عنان الامر وتجلس الدول واحدةً بعد أخرى على منصّة الملك وتخت السلطنة والعربية باقيـة كما هي لا يُصيبها تغير جوهري ولا يستولي عليها فساد

وقد كان سرى اليهـا في غرّة هذا العصر بعض الخمود والفتور حتى اننا كنّا نسمع منذ خمسين سنة من يتنبأ للغة العرب بسوء العُقبى وشرّ المنقلب. فيقولون لا يمرّ على اللسان العربي العشرون سنة دون ان يدرج في الاكفان. فيصير الى خبر كان

قد كذبت والحمد لله اراجيف انباء السوء وها انكم ايها الجلوس الكرام ترون العربيّة في ايامنا اعزّ شأنًا وابهى مقامًا منها في الاجيال السالفة وكيف تموت وقد عُدَّ المتكلّمون بها فاذا بعددهم يُربي على المئة ألف الف ؟ او كيف تموت وقد خلّفت لنا اسمُها السابقة كنوزًا ادبية وتركةً علميّة تُزري بقلائد العقيان ودراري المرجان ؟ او كيف تموت ويحييها كلَّ يوم دَبَوات من الكتبة البارعين والشعراء المفلقين ؟

لا وحياة الحقّ انّ العربية لم تمت ولن تموت ولست ارضى بشاهدٍ على هذا القول سوى ما رأيناهُ رأي العيان منذ خمسين سنة اذ نشطت النفوس وقام قائم الهمم في احياء آثارها الدائرة فبلغت الآداب العربية بعد برهة من الزمان ما لم يكن في الحُسبان

وما من شأنهِ ان يُذهل العقول ويُدهش الالباب انّ الاجانب كانوا اول من شمّر عن ساعد الجدّ للقيام بهذا الامر لا يَثنيهم عن اتمامهِ سعيٌ ولا كدّ. فانّهم لمّا أمعنوا النظر فيما أودعتهُ مكاتبهم الاوربية من المصنّفات العربية وشاموا برق فوائدها الجمّة اقبلوا على دراستها ولا اقبال الايل الصديان الى ينابيع المياه فنشروا منها قسمًا كبيرًا بالطبع وانشأوا المجلّات العلميّة للبحث في خواصّها وعوائدها واجتنـاء فوائدها وفوائدها بل لم يدعوا مدرسة من مدارسهم الكلية الّا وفرضوا فيها درس اللغات الشرقية وعلى الاخصّ لغتنا العربية بفروعها. ولو حاولتُ ان اسرد اسماء من يرزّ عندهم في هذا المجال لاسيّما بين مستشرقي فرنسة كدي ساسي ودرينو ودي پرسڤال وبين مشاهير المانية كفريتاغ وفلوغل لطال بي المقال وادّى بي الى الخروج عن حدود الايجاز المفروض في مثل هذه الحفلات. وحسبي ان اقول انّ

المطبوعات العربية وحدها التي تصدر في انحاء اوربة فضلًا عن بقية اللغات السامية تنيف كلَّ عام على الالف والثلاثمائة بين التآليف الصغيرة الحجم والكبيرة ذات المواضيع المتوسطة والخطيرة . وذلك بلا مراء اقوى دليل على ما في علماء الغرب من الكَلَف بنشر كتبنا العربية

هذا وانَّ شرقنا العزيز لم يك ليعاين هذه المساعي المشكورة بعين جامدة بل استنزَّتهُ الاريحية فنزل في الميدان ليحاول السباق مع الغرب كأنهما فرسا رهان . فلم يلبث الَّا الزمن القليل حتى جاءت همَّتهُ القعساء بثمار شهية ارتاح اليها سواد العلماء فزهت معامل الطباعة في القاهرة وتباهت الاستانة العلية بمطبوعاتهـا واستلفتت اقاصي الهند نظر الادباء بما اصدرت من المصنَّفات الجليلة

وكاني بكم ايُّها الحضور الكرام . توجَّهون اليَّ سهام الملام . فتقولون وكيف ذهلتَ عن بلادنا السوريَّة مع ما احرزتهُ من هذا القبيل من المجد الاثير . واصابتهُ من المقام الرفيع الخطير

نعمًا القول سادتي وما سكتُّ عن مفاخر بلاد الشام الَّا لأفردها بالذكر . وأخصَّها بجسيم الشكر . والحقُّ يُقال انَّها قامت بهذا المشروع قبل سواها من الاقطار الشرقيَّة . فلها على اقرانها سابق الفضل وشرف الاوَّلية . فانَّ اسماء مدارس عين ورقة والشرفة ومار عبدا ورينون وعينطورة وعين تراز ودير الخلِّيص وغزير وغيرها اصحت اشهر من نار على علم

أجل لقد مرَّ على سوريَّة نيِّف وخمسون سنة منذ اخذ الشبَّان يشدُّون اليها الرحال . ويتقاطرون اليهـا من كل أوب ليستقوا من موارد آدابها الماء الزلال . وهم يبنون على تهذيب مدارسها اطيب الآمال . الَّا انَّ بيروت لم تلبث ان تجتذب اليها كالمغناطيس كل القلوب بحسن موقعها واعتدال هوائها وتوسُّطها بين البلاد مع ما خُصَّ به اهلها من الانس ولطف الطباع . وذلك فضلًا عمَّن قام وقتئذٍ فيها من مشاهير الرجال ممَّن أُشير اليهم بالبنان ألا وهم قوم من الأئمة جمعوا من الفضل اتمَّهُ . ومن العلم والآداب تمَّهُ وردمَّهُ . فاستوجبوا كلَّ ثناء على مساعيهم المبرورة . واعمالهم المشكورة . فباغراثهم هبَّت بيروت من سِنتها . ونهضت من رقدتها . وعادت بالفكر الى ما سلف من الاجيال فتذكَّرت سابق شهرتها . اذ كانت فيها المدارس زاهرة . والبنايات عامرة . والخيرات وافرة . فقـال لسان حالها : « لات وقت خمول وتكاسل . وحانت ساعة عمل »

فما كان اسرع من ردّ الطَّرْف حتى انتعشت في بيروت الحميَّة فجعلت ترتقي مراقي

النجاح . وتصعّد في معارج التقدّم والفلاح . فانتشرت فيها المطابع وتشيّدت المدارس وتوفّرت فيها نوادي العلوم كالمدرسة البطريركية ومدرسة الحكمة حتى صارت تحطّ عصا الترحال . ومورد مطامع الآمال . وكنت ترى للعربية . في هذه النهضة المرتبة العليّة لا يكاد يمرّ يومٌ دون ان يتحفنا ادباء بيروت بالمقالات الرائعة . والتصانيف البارعة . فضلاً عن عدد وافر من الجرائد والمجلّات العلميّة فصارت في أعين اوربة مطبوعات بيروت كناية عن مصنّفات تامّة المحاسن جامعة بين حسن السبك وجودة المعاني . فلله بيروت فانها حقيقةً اضحت كروضةٍ غنّاء . تستظلّ بوارف ظلّها جماعة طيور السماء .

وان سُمح لي ايها السادة ان اتخلّص من مدح بيروت ومداوسها الزاهرة الى ذكر كليّتنا هذه العامرة التي شرّفتمونا بحضوركم في هذا المساء . قلتُ انّ احدى الغايات الاولى من تشييد هذه الكليّة انّما هو تلقين تلامذتها لغتهم العربية . وما ضرّ انّ كثيرًا من الرهبان المتولّين ادارتها ليسوا من ابناء الوطن لأنهم لمّا انتقوا بل رضاهم من اوطانهم وانفصلوا عن اهلهم وخلّانهم اتّخذوا لهم محلّ سكناهم كوطنٍ فاتّسموا بسماهُ واستشعروا آدابهُ فجعلوا لسانهُ كلسانهم . كما انّهم يُعزّون سلطانهُ كسلطانهم

وعلاوة على ذلك انّ بين قوانين الرهبانية اليسوعية بندًا يفرض على ابنائها اذا ما دخلوا بلدًا ان يتفرّغوا لدرس لغته ما لم تحُل الظروفُ دون مرامهم . يشهد بذلك مئات بل الوف من الكتب وضعوها في كلّ لغات الشرق كالصينية واليابانية والهندية والفارسية . وعليه فما كادت ترسخ قدمهم في الاصقاع السوريّة حتّى انكبّوا اي انكباب على درس العربية . ولا حاجة لي ان اعدّد هنا من خلّف منهم لسلفهم إرثًا علميًّا لا يزال يستشيرهُ آل عصرنا . وقد انتسى بامثالهم من اتى بعدهم . واليومَ لا نكاد نرى بابًا من العلوم الّا ولجوهُ ولا فنًّا من فنون العربية الّا وضعوا فيه عدّة مؤلفات . فانّ الكتب التي صدرت من مطبعتهم بقلم مؤلفيهم قد جاوزت الثلاثمائة عدًّا . هذا ما خلا جريدتهم الاسبوعية . ومجلّة جديدة اخذت تبحث في كلّ مواد المعارف البشريّة .

ولكن اذا كان اليسوعيون لم يألوا جهدًا في درس العربية ما أمكن ليست همّتهم بتدريسها اقلّ شأنًا . ولا اعتبارهم لها بين بقيّة الدروس اوضع مكانًا . نعم اننا نريد ان يُتقن تلامذتنا اللغات الاجنبية لا في إحكام اصولها من الفوائد لتثقيف العقل وتحسين الذوق فضلاً عن أنّها تُدنيهم الاقتباس من انوار اوربّة وعلوم اهلها وآدابهم

واكتشافاتهم. الّا اننا نرد ايضاً ان يتمكّن الطلبة الواردون الى مدارسنا من معرفة لغة اجدادهم فيبذلوا اقصى ما تبلغ مقدرتهم من الجدّ لاحراز فوائدها. وذلك امر لازب لانّ الغاية التي نتوخّاها في مدارسنا ان نُعدّ للاهلين اولاداً يكونون لهم يوماً في اشغالهم سنداً. وفي خدمة وطنهم عوناً وعضداً. فان جهل هؤلاء الاحداث لغة آبائهم فترى اي خدمة يؤدّون. واي نفع يُجدون

فذاك ما حمل في كلّ آن رؤساء هذه المدرسة الكليّة. ان يعزّزوا بين طلبتهم الدروس العربية. ويفُرها حقّها من الاعتبار والاهميّة. وكان اوّل ما استلفت ابصارهم ان يجهّزوا للتدريس الكتب المقتضاة لهذه المهمّة وهي كانت قبلهم اعزّ من الغراب الاعصم لا يقتنيها الطلبة الّا بعد الجهد الجهيد وصرف النفقات الطائلة وكان اكثرها مشحوناً بالمقاطيع البذيّة. والقصائد الغزلية. والاقاويل المخلّة بالآداب والطاعنة بالمعتقدات الدينية. فها اليوم قد توفّرت والحمد لله بهمّة رؤساء هذه الرسالة الكتب المدرسية لكلّ طبقات التدريس. فما شاعت بين الناس حتّى جنحوا اليها واقبلوا عليها وجعلها البلغاء دستوراً للتعليم في المدارس الشرقية والغربية

ومن الوسائط التي اتّخذوها لإعلاء منار العربية ما اقاموهُ في هذه المدرسة من المحافل الادبية وهي مجالس يجتمعون فيها نُخبة التلامذة ليبسطوا لهم القول في مسائل ادبية ومباحث لغوية ومشاكل تاريخية. لا يمكنهم الخوضُ فيها في المدارس العاديّة. ثم تُقترح على هؤلاء التلامذة ابحاث في بعض المطالب شحذاً لقرائحهم وقدحاً لزَند فكرتهم فاذا انتهوا من التصنيف جُمعت اشغالهم ونُقحت ثمّ تُعرض بعدئذٍ على مسامع الجمهور في جلساتٍ تُعقد امام اعيان البلد. وهذه عناوين بعض المواد التي دار عليها البحث تنبئكم على خطارتها: مفاخر بيروت. وتنصُّر النعمان. والقديس يوحنا فم الذهب. وشهداء نجران. والآداب العربية. ونكبة البرامكة. والقديس يوحنا الدمشقي. والمأمون وعصره. الى غير ذلك مما يشهد بفضل اعضاء هذه المحافل

وربّما لُقّن طلبةُ المدارس العُليا فنّ التمثيل وحسن الأداء في مدارسهم ثمّ اذا سنحت الفرصة يدعون اعيان البلد لتشخيص روايات مفجعة يُحيون بها بعض المآثر الجليلة والحوادث الخطيرة. فمن جملة ما مثّلوا الى اليوم: رواية صدقيا. وآخر دولة المكابيين. وداود ويوناثان. واستشهاد القديس يرجس. وشهيد الوفاء. ومنها ما صنّفهُ طلبة مدرسة اليان

والخطابة كرواية ابن السموءل ورواية المهلهل

ومما توسّل به اصحاب هذه المدرسة من الوسائل لتنشيط الدروس العربية انشاء مكتبة عمومية لجميع التلامذة تجمع الى الآن نيفاً وثلاثمائة كتاب عربي يمكن الطلبة النظر فيها في ساعات العطلة وأوقات الفراغ من الدروس. فسرّنا ما لقينا في الكثيرين من الاقبال على مطالعة هذه الكتب يدرسون فيها اساليب الكتابة ويوسّعون نطاق معارفهم

هذا الى وسائل أخر عديدة يقضي عليَّ قصر الوقت بضرب الصفح عنها الّا انَّ في ما تقدَّم دليلاً بيّناً على ما يصرفهُ آباء هذه المدرسة من العناية في تدريس العربية

وفي الختام لا يبقى لي أيُّها السادة الكرام الّا ان اطلب من لطفكم ان تقرنوا مساعيكم بمساعينا وبجهودكم بجهودنا لتحببوا الى اولادكم درس لغةٍ نمّتهم منذ صباهم وغذوا بلبانها في عنفوان شبليهم فاضحت قسماً من وجودهم

وانتم أيُّها الطلبة الاعزّاء اليكم اوجّه خطابي محرّضاً لكم بل سائلاً بزيد الالحاح. ان تداوموا على درس لغتكم الشريفة لا يثني عزمكم في تعدين كنوزها عناء ولا مَلَل لاسيَّما في ايَّام العطلة السنويَّة فانكم بدرسها تجتنون الفوائد الجمَّة وتدَّخرون المنافع العظمى كيف لا وفيها تجدون سهماً لقريحتكم ونشاطاً لعقلكم وتحسيناً لذوقكم مع ما في كثير من تآليف اربابها من لطيف المعاني ورقَّة الالفاظ وحسن سبك العبارة ورقة التكلُّف وكثرة التفنُّن

ثمَّ اعلموا انَّهُ دون التبحُّر في لسانكم لا يمكنكم التصدُّر في نوادي الادباء. ومجالسة من في اوطانكم من الوجوه والشرفاء. فانكم وان احكمتم اللغات الاجنبية لا تنجون من تقريع بني وطنكم لانتسابكم الى غير أنسابكم. وذهولكم عن عوائدكم وآدابكم وكفاكم بذلك خزياً وعاراً

بل دعوني بالاحرى ان اقدّم التهاني لمن اصابوا قصبة السباق في ميدان الدروس العربية واتمنّى لجميعكم ان تتقفّوا آثار من سبقكم من الطلبة في هذه الكلّية الذين يدرس لغتهم فتحوا لهم باباً واسعاً وطريقاً سهلاً ادّى بهم الى ما التمسوهُ من الامور الشريفة والمراتب المنيفة. فليحملكم مثلهم على التأسي بهم لتنالوا جزاء اجتهادكم ونشاطكم. هذا ما اطلبهُ منهُ تعالى وهو سميع الدعاء. ومحقق الرجاء. امين